مجلة الشهاب • المجلد: 08، العدد: 03 (2022م) • ص ص 513 – 532
(ISSN: 2477-9954, EISSN: 2602-5485)

فلسفة التواصل الحضاري وسؤال النهضة
ـ بين شروط مالك بن نبي وقانون جاسم سلطان ـ

The Philosophy of Civilized Communication and the Auestion of Renaissance
-Between the Conditions of Malik bin Nabi and the Law of Jassim Sultan-

ط.د/ بدر الدين زواقة *
جامعة مستغانم (الجزائر)
borhanedine@gmail.com

أ.د/ ميلود العربي
جامعة مستغانم (الجزائر)
miloudlarbi2003@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2022/03/05 | تاريخ القبول: 2022/09/06 | تاريخ النشر: 2022/11/12

❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖

ملخص: حاولت أن أضع مقاربة موضوعية بين رؤيتين في النهضة وسؤالها، تتعلق الرؤية الأساسية بما طرحه ما لم بن نبي في شروط النهضة، وقد كان سباقا في البيئة العربية والإسلامية في تحليل الظواهر من خلال رؤية فلسفية وأدوات منهجية حديثة، توصل من خلالها إلى ما سماه بالناتج الحضاري .

والرؤية الثانية لجاسم سلطان من خلال قوانين النهضة العشرة التي وضعها كاستراتيجيات عملية في الدول الحديثة. وتوصلت أن هناك تشابك بين الرؤيتين وتكامل ،ذلك أن مالك بن نبي وضع نظريات في التغيير الاجتماعي وجاسم سلطان استفاد من نظريات بن نبي وطرح استراتيجيات عملية وظيفية من خلال ما سماه: "قوانين النهضة".

وقاربت بين الرؤيتين من خلال استنباط نظريات واستراتيجيات في التغيير الاجتماعي.

الكلمات المفتاحية: التغيير الاجتماعي؛ النهضة؛ الحضارة؛ التنمية؛ الصحوة؛ الإصلاح.

Abstract: I tried to put an objective approach between the two visions in the Renaissance and its question. The basic vision is related to what Malik Ben Nabi suggested in terms of the Renaissance. He was a pioneer in the Arab and Islamic environment in analyzing the phenomena through a philosophical vision and modern methodological tools, through which he concluded to the concept of cultural output. The second vision belongs to Jassim Sultan through the ten laws of the Renaissance that he developed as practical strategies in the modern countries. The study concluded that there is a correlation between the visions; Malik Bin Nabi set theories in social change, and Jassim Sultan benefited from the theories of Ben Nabi, presenting operational and functional strategies named "laws of Renaissance ".It approached the two visions through deducting theories and strategies in social change.

Keywords: Social Change; Renaissance; Civilization; Development; Awakening; Reform.

* المؤلف المراسل.

1. مقدمة

النهضة -وسؤالها- كانت ولا تزال محور تفكير وتنظير وتأسيس للكثير من النخب الفكرية العربية والإسلامية عبر قرون من الزمن غير بعيد، بدءا بظاهرتيه ابن خلدون وملامح الكواكبي واجتهادات الأفغاني ومحمد عبده ورؤى محمد رشيد رضا وجهود حركات الإصلاح الحديثة مرورا بنظريات بيجوفيتش وانتهاء بفيلسوف النهضة الأستاذ مالك بن نبي، الذي استطاع من خلال ثقافته الواسعة والشاملة والمنفتحة أن يكون نقطة انعطاف هامة في مشروع النهضة، من خلال سلسة مؤلفات متكاملة كانت في مجملها تدور حول سؤال النهضة ورؤية الحضارة.

وبطريقة تختلف تماما عن الطريقة التي اعتادت عليها النخب الإصلاحية باعتماد الوعظ والأنموذج المثالي في التحليل والتشخيص، فقد اعتمد مالك بن نبي الظاهرتية والتحليل التاريخي والنفسي والاجتماعي وفق رؤية ومنهج تميز بها في كل مؤلفاته.

وقد تبنى مالك بن نبي معالجة الجواهر والأسباب من خلال تبنيه الأدوات المنهجية الجديدة في العلوم الإنسانية، وبين ذلك بقوله واصفا للمحاولات السابقة في تشخيص الأزمة: "لا يعالجون المرض بقدر ما يعالجون أعراضه"[1].

ويقول أيضا: "أن الفقر والجهل والاستعمار ما هي إلا نتائج لأسباب سابقة، أصولها موجودة في أنفسنا"[2].

ومن ثم طور بن نبي وأسس لمفهوم : "قابلية الاستعمار"، باعتبار الاستعمار نتيجة وليس سببا .

وليكمل المنهج الذي تبناه ابن خلدون في المقدمة قائلا: "اعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب، جم الفوائد، شريف الغاية، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياستهم؛ حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يروم في أحوال الدين والدنيا".[3]

وأعتقد أن بن خلدون مثّل هو الآخر نقطة انعطاف في التحليل التاريخي والاجتماعي، وتمثل هذه الرؤية جديدة في:

1) التأسيس لنوع جديد من المعرفة ويتعلق بالعمران البشري – علم الاجتماع حاليا -.
2) لا يقتصر هذا المنهج الجديد على رصد الأحداث وتأريخها، بل يتعدى التحقيق والتسجيل والتفسير.
3) أهمية ترابط الأحداث وتسلسلها وتعاقبها لاستنباط النظرية المناسبة في التغيير الاجتماعي.
4) بيان التطور والنمو للمجتمعات والأمم والحضارات.

ذلك أن: "التاريخ دراسة للتطور البشري في جميع جوانبه السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية والروحية، أياً كانت معالم هذا التطور وظواهره واتجاهاته".[4]

ويتوافق تماما في ما ذهب إليه الأستاذ مالك بن نبي والتأسيس لمفهوم دورة التاريخ أو الدورة الحضارية بقوله: "من الملاحظات الاجتماعية أن للتاريخ دورة وتسلسلاً... تحتم علينا في حل مشكلاتنا الاجتماعية أن ننظر مكاننا من دورة التاريخ، وأن ندرك أوضاعنا وما يعترينا من عوامل الانحطاط وما تنطوي عليه من أسباب التقدم، فإذا ما حددنا مكاننا من دورة التاريخ، سَهُل علينا أن نعرف عوامل النهضة أو السقوط في حياتنا".[5]

ويشير كذلك جاسم سلطان لنفس الاتجاه بقوله: "إن الحاجة قد باتت ملحة لتأمل التجربة التاريخية البشرية لنستقي منها العبرة. ومن خلال هذه الدراسة التاريخية تم استخلاص هذه القوانين المركزة، والغرض منها تنظيم الخارطة الذهنية لقادة النهضة والعاملين فيها"[6].

وهنا يشير محمد رشيد رضا في تفسير المنار في قول الله تعالى: ﴿ فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾[7] ".. فيجب على الأمة في مجموعها أن يكون فيها قوم يبينون سنن الله في خلقه، كما فعلوا في غيرها من العلوم والفنون التي أرشد إليها القرآن بالإجمال، وبينها العلماء بالتفصيل، عملاً بإرشاده، كالتوحيد والأصول والفقه. والعلم بسنن الله تعالى من أهم العلوم وأنفعها. والقرآن يحيل إليه في مواضع كثيرة. وقد دلنا على مأخذه على أحوال الأمم، إذ أمرنا أن نسير في الأرض لأجل اجتلائها ومعرفة حقيقتها"[8].

فكان كتاب "شروط النهضة" علامة فارقة في التنظير للنهضة والتدقيق في سؤالها من خلال عرض معرفي، يمثل مشروع مجتمع الحضارة من خلال ما سماه "الناتج الحضاري".

وقد استطاع مالك بن نبي أن يحول البوصلة الإصلاحية من التحليل الطوباوي الدغمائي المجرد إلى التشخيص الواقعي الاستشرافي.

وكل من اهتم بسؤال النهضة من المفكرين والنخب الفاعلة والمؤسسات الفعالة مر بالضرورة على فكر مالك بن نبي، والكل يشهد بذلك. - مثلا: هذا ما شهد به الأستاذ عبد الفتاح مورو في برنامج "شاهد العصر" من خلال الإجابة على سؤال الإعلامي أحمد منصور عندما قاله له: لاحظنا أن فكر حركة النهضة يختلف عن باقي الحركات الإسلامية، فأجابه أن سر ذلك أننا تعرفنا عام 1972 بملتقى الفكر الإسلامي على الأستاذ مالك بن نبي، مما جعلنا نغير الكثير من تصورتنا الفكرية والحركية وأولوياتنا –.

ومن بين من تأثر به ويمثل الآن امتدادا طبيعيا له، هو الدكتور القطري جاسم سلطان الذي استطاع أن يحول نظريات النهضة إلى قوانين واستراتيجيات قابلة للتنفيذ في المجتمعات المعاصرة.

فكان هذا البحث مقاربة بين نظرية الجزائري مالك بن نبي في شروط النهضة والقطري الدكتور جاسم سلطان في قوانين النهضة، ومحاولة تأسيسه لمشروع مجتمع يحقق الصحوة ثم اليقظة ثم النهضة ثم الحضارة – حسب تصنيفات جاسم سلطان -.

2. كتاب "شروط النهضة" و قيمته المعرفية.

2. 1. يعتبر كتاب "شروط النهضة" علامة فارقة في الإنتاج الفكري النهضوي العالمي، وامتدادا طبيعيا لكل الجهود الفكرية والتراكمات المعرفية التي تناولت سؤال النهضة. وما ميز مضامين هذا الكتاب الرؤية الجوهرية والسببية في الطرح تتجاوز الأعراض والنتائج.

وفي هذا يشير مالك بن نبي "أن مشكلة كل شعب هي في مشكلة حضارته، ولا يمكن لشعب أن يفهم أو يحل مشكلته ما لم يرتفع بفكرته إلى الأحداث الإنسانية، وما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها"[9].

وهذه الرؤية المتجددة والمتميزة في التحليل الاجتماعي تتلخص في ما يلي:

أ- الرؤية الحضارية الشاملة التي تتجاوز الرؤى التجزيئية والنسبية.

ب- الرؤية الإنسانية التي تحدد ملامح مشكلات البشرية.

ت- الرؤية السنية التي تفسر عوامل بناء وهدم الحضارات.

وقد ركز المؤلف في كتابه على تحليل وتشخيص النهضة وشروطها على المسألة الثقافية باعتبارها أرضية في فهم الظواهر الاجتماعية، حيث يعتبر المدخل الثقافي من منطلقات فكر مالك بن نبي في النهضة وشروطها، فهو يعرف الثقافة "على أنها مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي يلقاها الفرد منذ ولادته كرأسمال أولي في الوسط الذي ولد فيه، والثقافة على هذا هي المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته".[10]

وهذا التعريف المتميز للثقافة يجعل منها أساسا في صناعة إنسان النهضة من خلال:

أ- بيان مجموعة الصفات والقيم التي يتلقاه الفرد.

ب- الإشارة إلى مفهوم رأس مال الرمزي القيمي.

ت- دور مؤسسات التنشئة الاجتماعية والمحيط الاجتماعي في صناعة ثقافة الفرد.

ويضيف بطريقة أكثر تفصيلا ممهدا لدورها في النهضة والحضارة حيث يقول أن "الثقافة ليست علماً خاصاً لطبقة من الشعب دون أخرى، بل هي دستور تتطلبه الحياة العامة... وهي الجسر الذي يعبره المجتمع إلى الرقي والتمدن... والحاجز الذي يحفظ بعض أفراده من السقوط من فوق الجسر إلى الهاوية".[11]

وهذا البعد الجديد للثقافة الذي يتجاوز فيه التعاريف التقليدية والمفاهيم النمطية، فهو يعطيها مفاهيم

متجددة وأبعادا واقعية كونها:

أ- نظرية في السلوك وليست نظرية في الفكر.

ب- علاقة الثقافة بالمعادلة الاجتماعية.

ت- العلاقة المصيرية بينها وبين التقدم والتمدن.

وبهذا الأسلوب التحليلي استطاع أن يتوصل إلى وضع شروط لتوضيح هذه العلاقة المصيرية بين المجتمعات ومصيرها الحضاري. وتتمثل في "... مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد من أفراده في كل طور من أطوار وجوده منذ الطفولة إلى الشيخوخة، المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذاك من أطوار نموه، فالمدرسة والمعمل والمستشفى ونظام شبكة المواصلات والأمن في جميع صوره عبر سائر تراب القطر واحترام شخصية الفرد تمثل جميعها أشكالا مختلفة للمساعدة التي يريد ويقدر المجتمع المتحضر على تقديمها للفرد الذي ينتمي إليه"[12].

2. 2. وهذا الكتاب –شروط النهضة– وضع أسسا ومنطلقات معرفية وواقعية للنهضة من الزاوية الثقافية مبينا أنها:

أ- تجمع بين الصفات الأخلاقية القيمية والمادية الحسية.

ب- بيان أن نمو المجتمعات صنو نمو الأفراد.

ت- بيان أهمية مؤسسات التنشئة الاجتماعية وشبكة العلاقات في بناء النهضة. وفي ذلك يشير مالك بن نبي: "فإن أي مجتمع يسعى إلى الحضارة يجب عليه أن يستفيد من تجاربه ويتحرّك باتجاه تطوير حياته من خلال قانون 'التدافع والتعارف' بتعبيرنا، أو الأيديولوجية التي تحكم السنن التاريخية".[13]

وقد اعتمد هذا الكتاب -شروط النهضة- على المنهج الحسي في التعاطي مع وصف المجتمعات ونموها، من خلال الأشكال الحسية التي تلخص الظاهرة غير قرون[14].

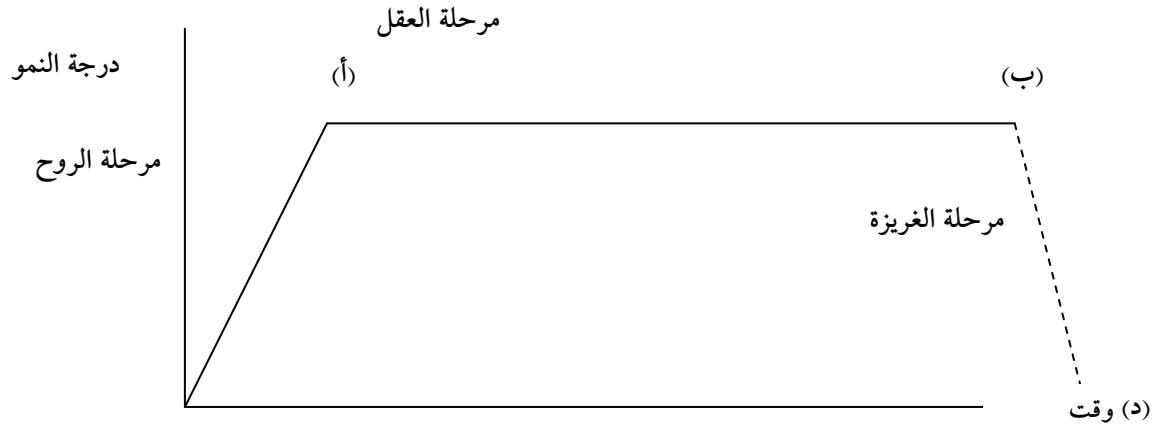

فهذا الشكل الذي وضعه مالك بن نبي وتميز من خلال ملاحظاته ومعارفه المتعددة؛ فهو يقرر أن الأمة مرت بثلاث مراحل: مرحلة النمو – الروح –، ومرحلة الاستقرار – العقل –، ومرحلة السقوط – الغريزة-.

وفي هذا يعرف الروح بقوله: "ولست أعني بالروح ذلك الشيء الدال على منطق أو عقل أو مبادئ مجردة، وإنما هو بصفة عامة: ذلك الشعور القوي في الإنسان، والذي تصدر عنه مخترعاته وتصوراته وتبليغه لرسالته، وقدرته الخفية على إدراك الأشياء".[15]

2. 3. أبدع الأستاذ مالك بن نبي باستنتاج المعادلة والناتج الحضاري من خلال ثلاثية: "الإنسان والتراب والزمن"، ويقدم هذا التحليل والتشخيص مبرزا محوريتهم ومركزتيهم في النهضة، "فجزيرة العرب.. لم يكن بها قبل نزول القرآن إلا شعب بدوي يعيش في صحراء مجدبة يذهب وقته هباءً لا ينتفع به؛ لذلك فقد كانت العوامل الثلاثة: الإنسان، التراب، والوقت راكدة خامدة، وبعبارة أصح: مكدسة لا تؤدي دوراً ما في التاريخ؛ حتى إذا ما تجلت الروح بغار حراء -كما تجلت من قبل بالوادي المقدس، أو بمياه الأردن- نشأت بين هذه العناصر الثلاثة (الإنسان + التراب + الوقت) المكدسة حضارة جديدة؛ فكأنها ولدتها كلمة ﴿ اقرأ ﴾ التي أدهشت النبي الأمي، وأثارت معه وعليه العالم".[16]

وهذا التحليل أبزر أبعادا جديدة في النبوة والرسالة متجاوزا العرض النمطي معتمدا التحليل النفسي والاجتماعي في عرض السيرة النبوية من خلال:

أ- إن سر تقدم المجتمعات وسقوطها يكمن في فعالية العناصر الثلاثة أو خمودها.

ب- أهمية الفكرة الدينية باعتبارها متغيرا تؤثر في تفاعل العناصر الثلاث .

ت- بيان مفهوم التكديس.

2. 4. إعطاء مفاهيم جديدة للعناصر الثلاثة، فهو مثلا يبين مفهوم الزمن قائلا: "إن الزمن يمر خلال المدن، يغذي نشاطها بطاقته الأبدية، أو يذلل نومها بأنشودة الساعات التي تذهب هباءً، وهو يتدفق على السواء في أرض كل شعب، ومجال كل فرد، وهو في مجال ما يصير "ثروة" وفي مجال آخر يتحول عدماً، فهو يمرق خلال الحياة، ويصب في التاريخ تلك القيم التي منحتها له الأعمال التي أنجزت فيه، ولكنه نهر صامت، حتى أننا ننساه أحياناً، وننسى الحضارات، في ساعات الغفلة أو نشوة الحظ قيمته التي لا تعوض، ومع ذلك ففي ساعات الخطر في التاريخ تمتزج قيمة الزمن بغريزة حب البقاء، إذا استيقظت، ففي هذه الساعات التي تحدث فيها انتفاضات الشعوب، لا يُقَوَّم الوقت بالمال، كما ينتفي عنه معنى العدم، إنه يصبح جوهر الحياة الذي لا يقدر، ولا تستطيع أي قوة في العالم أن تخلق دقيقة أو أن تستعيدها إذا مضت".[17]

فهذا التحليل الفلسفي والنفسي والسلوكي لمفهوم الزمن جعل منه عنصرا أساسا مفصليا في عملية التغيير الاجتماعي كونه:

أ- الزمن مؤشر نشاط أو نوم.

ب- الزمن متعلق بالأفراد و المجتمعات.

ت- الزمن قيمة حضارية.

ث- أهميته و خطورته – النهر الصامت –

ج- الزمن جوهرا الحياة.

فالزمن القيمة التي لا تعوض، فهو يقرر "فإذا استغل الوقت... فلن يضيع سدى، ولن يمر كسولاً في حلقنا، فسترتفع كمية حصادنا العقلي واليدوي والروحي، وهذه هي الحضارة".[18]

إنسان مبدع + تراب + وقت = حضارة

2. 5. اعتمد مالك بن نبي في شروط النهضة البعد الحضاري الذي تميز به في كل كتبه، باعتبار الحضارة ناتج بين العناصر الثلاث وليست عملية تكديسية، فهو يفرق بينها وبين الحالة الحضارية.

ويبين ذلك بقوله: "ومن البين أن العالم الإسلامي يعمل منذ نصف قرن على جمع أكوام منتجات الحضارة، أكثر من أن يهدف إلى بناء حضارة، وقد تنتهي هذه العملية ضمنا إلى أن نحصل على نتيجة ما، بمقتضى ما يسمى بقانون الأعداد الكبيرة، أعني قانون الصدقة، فكوم ضخم من المنتجات المتزايدة دائما، يمكن أن يحقق على طول الزمن، وبدون قصد (حالة حضارة)، ولكنا نرى فرقا شاسعا بين هذه الحالة الحضارية، وبين تجربة مخططة كتلك التي ارتسمتها روسيا منذ أربعين عاما، والصين منذ عشر سنوات، هذه التجربة تبرهن على أن الواقع الاجتماعي خاضع لنهج فني معين، تطبق عليه فيه قوانين (الكيمياء الحيوية) و(الديناميكية الخاصة) سواء في تكونه أم في تطوره"[19].

وهذا المفهوم المتجدد يجعل من الحضارة:

أ- صناعة ذاتية وليست استيراد.

ب- الحضارة إبداع وليست تقليد.

ت- صناعة قيمية خاصة.

2. 6. تعتبر مشكلة الأفكار من المستويات التي تميز بها مالك بن نبي في أغلب كتبه، فهو يرى أن عمق المشكلة الحضارية هي في الأساس مشكلة فكرية تتعلق بالأنساق الفكرية في المجتمعات، وهنا يشير بكل وضوح بقوله: "إن الذي ينقص المسلم ليس منطق الفكرة ولكن منطق العمل والحركة، فهو لا يفكر ليعمل بل ليقول كلاما مجردا بل أكثر من ذلك فهو يبغض أولئك الذين يفكرون تفكيرا مؤثرا، ويقولون كلاما منطقيا من شأنه أن يتحول في الحال إلى عمل ونشاط"[20].

وهو في هذا السياق يعطي معنى للفكرة وعالم الأفكار من خلال:

أ- منطق الفكرة:

ب- تأثير المؤثرة.

ت- موقع الفكرة.

فمنطق الفكرة مثلا يتطلب العمل والحركة ويتوافق بالضرورة مع منطق العمل، وفي هذا يؤكد: "فنحن حالمون ينقصنا المنطق العملي"[21].

3. طبيعة الإضافة العلمية في كتاب " قوانين النهضة ".

يعتبر جاسم سلطان امتدادا طبيعيا لجهود مالك بن نبي، فقد تأثر به وبكتاباته التي وجد فيها نوعا من التكامل المعرفي والمنهجي، ومما ميز جاسم سلطان ما يلي:

أ- اهتمامه بفلسفة التاريخ .

ب- السؤال الفلسفي والمنطق العلمي في توجهاته [22].

ت- رصد ومراجعة لحركات التغيير والإصلاح في العالم الإسلامي[23] .

ث- الاستفادة من العلوم الإنسانية في التحليل والتعاطي والتنظير.

وبذلك استطاع أن يضع قوانين للنهضة، باعتبارها سنة كونية، وشرح ذلك بقوله: "والتعرف على قوانين النهضة أمر مهم جداً لكل من يهفو قلبه إلى التغيير، وإلا ضاع فريسة الارتجال. ولقد وجهنا المولى عز وجل إلى أن للكون قوانين ثابتة، فقال تعالى: ﴿ فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً ﴾، وقال: ﴿ لا تبديل لخلق الله ﴾. ففي الكون والنفس والسنن الاجتماعية الكثير من القوانين الثابتة. من أعرض عنها فقد ألغى عقله وأضر بنفسه"[24].

هذا المنحى السنني في التأسيس والتنظير جعل من كل كتبه تخدم موضوعا واحدا متكاملا يتعلق بالنهضة ومشروعها [25].

1.3. وفقد وضع قوانين تحاكي الدساتير المدنية في الدول الحديثة، لكن برؤية حضارية قيمية، وهو يشرح ذلك بقوله: "والتعامل مع هذه القوانين يتم على مستويين:

فعلى مستوى الفرد يتم تصحيح خارطته المفاهيمية والتصورية، فيحسن التلقي والعمل. وعلى مستوى القادة والحركات النهضوية يُعلم متطلبات إنجاز مثل هذا العمل وشروط تحققه، فلا تدور عجلة العمل بالسير في المكان وإجهاد الجسد من غير تقدم للأمام.

لقد راعينا في هذه القوانين التبسيط لضمان وصولها لأكثر الشرائح ولأوسع قاعدة من المستفيدين. وتسعة من هذه القوانين تتحدث عن مرحلة ما قبل الدولة، بينما يتحدث القانون العاشر عن مستلزمات النجاح في حالة ما بعد الدولة والتمكين، وذلك حتى تتكامل الصورة في ذهن العاملين عن مستلزمات

النجاح. ونحب أن نوضح أننا لن نتناول القوانين كلها بالذكر؛ بل سنتناول بعضها، ونتعلم كيف يتم التعامل معها. وعلى قائد النهضة أن يُعمِل عقله وفكره لاستخلاص القوانين الأخرى من الكون ومن التجارب التاريخية. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. إنها فرصة لتفعيل عبادة التفكر. سواءً كانت تفكراً في القرآن وتجارب السابقين، أو في التجارب التاريخية، أو في الكون المنظور والواقع القريب. وكذلك فرصة لتفعيل عبادة الصلاة، وتلاوة القرآن من خلال التدبر فيهما لاستخلاص القوانين التي جاءت في معرض ذكر تعامل الله مع الأمم السابقة، أو في بعض الآيات التي أجملت بعض القوانين إجمالاً"[26].

لقد وضع لهذه القوانين منطلقات و أسس للتعامل معها نختصرها في ما يلي:

أ- هناك مستويان لهذه القوانين، على مستوى الأفراد من خلال تصحيح المفاهيم وعلى مستوى الحركات من خلال متطلبات العمل المنظم والفعال.

ب- منهج التبسيط في التأسيس لقوانين النهضة[27].

ت- تصنيف القوانين إلى عشر، تسعة منها قبل ما قبل قيام الدولة، وواحد بعدها.

ث- أهمية التعامل مع القوانين في مقابل ذكرها وحصرها.

ج- إمكانية استخراج قوانين أخرى من خلال التفاعل الصحيح والإيجابي مع الكون والتاريخ.

ح- التفاعل الإيجابي بين الفكر والذكر المنتج للقوانين المتجددة.

خ- الربط بين العبادة و الحضارة.

3. 2. استطاع جاسم سلطان في أغلب كتبه أن يقدم أفكاره من خلال الرسوم التوضيحية المتكاملة التي تشرح أفكاره، فمثلا عنصر "الإنسان " يعطى له أبعادا تفصيلية فالمبين في الجدول الآتي[28]:

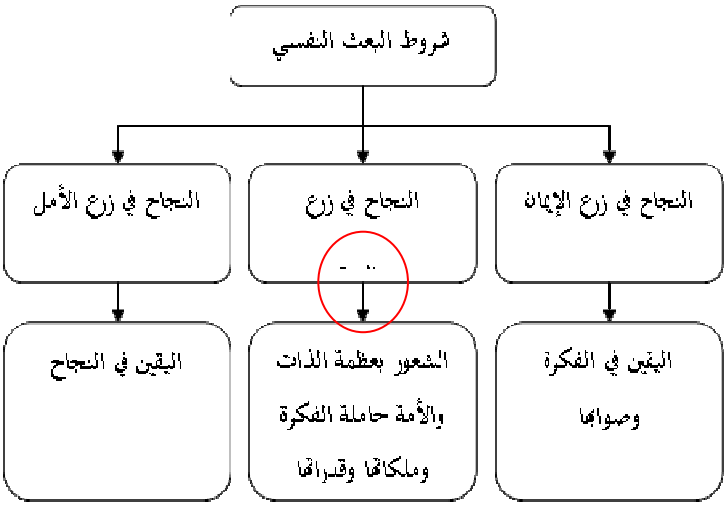

أمة مؤمنة بالفكرة ----◄ واثقة بقدرتها على القيام بها----◄ مطالبة واثقة من النجاح

3. 3. أعطى جاسم سلطان لقوانينه معادلات تفسيرية لها وتوضيحية وبطريقة إبداعية، فمثلا يقوم بشرح هذه المعادلة التي تبين مدى الترابط والتلازم بين هذه القوانين الثلاثة الأولى من قوانين النهضة. ويمكن توضيح هذا التلازم والتفاعل من خلال الشكل التالي[29]:

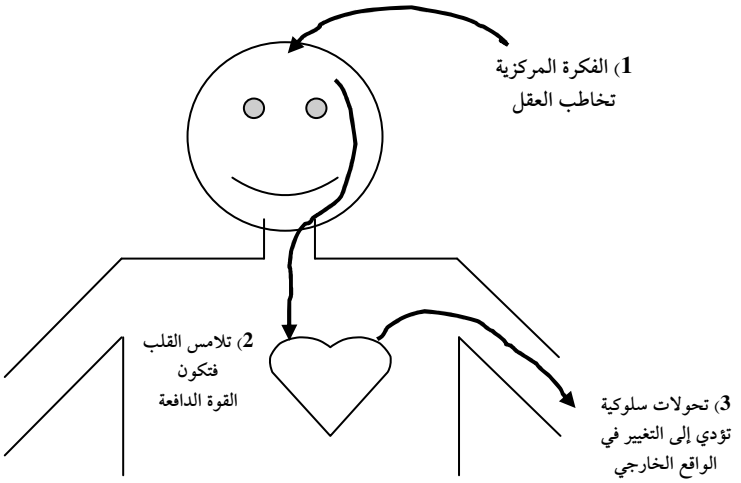

اختيار الفكرة المركزية + استخدام الفكرة المحفزة + بعث عالم المشاعر والأحاسيس= تغير في عالم السلوك

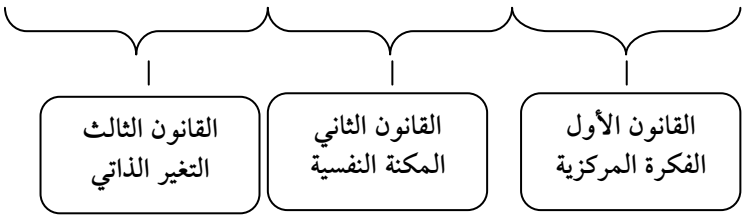

3. 4. وضع جاسم سلطان استراتيجية شاملة من خلال مراحل متكاملة، وكل مرحلة بين مفهومها وأهميتها، كما هو مبين في الشكل التالي[30] :

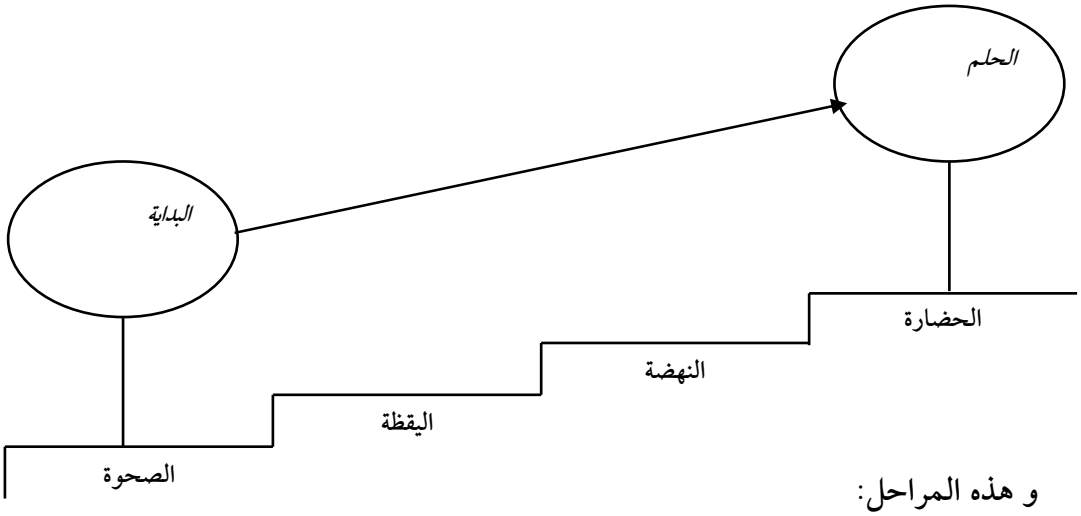

و هذه المراحل:

أ- الصحوة:

ب- اليقظة:

ت- النهضة:

ث- الحضارة:

3. 5. وقد وضع الشرائح و الفئات التي تقوم بهذا الدور، كما هو مبين في الشكل الآتي[31]:

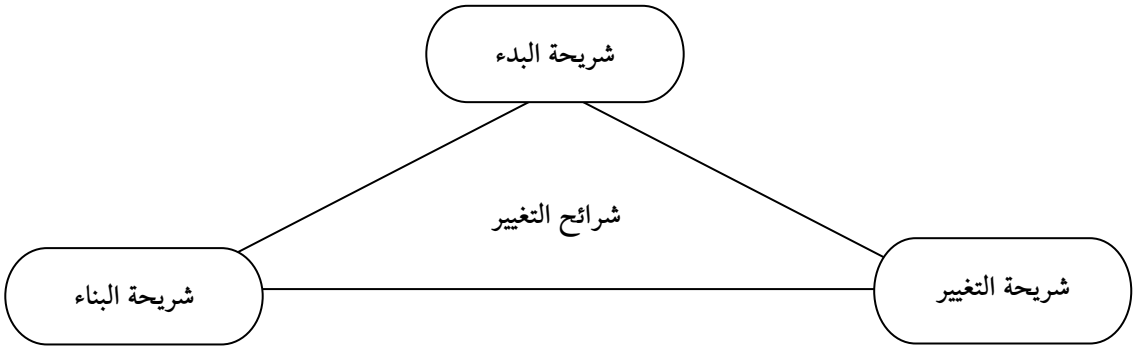

وقد بين وظائف كل شريحة:

أ- شريحة البدء:

ب- شريحة التغيير:

ت- شريحة البناء:

3. 6. حاول أن يؤسس لنظرية جديدة للنهضة من خلال الأبعاد الواقعية والاستراتيجية، وهي في الغالب توصيف دقيق لشروط مالك بن نبي من خلال القوانين العشرة التالية[32]:

أ- قانون الفكرة المركزية:

هي عبارة عن مجموعة المبادئ العامة التي تعتمدها أي دعوة أو حركة أو تجمع. أو المبدأ الذي تعتنقه الدولة، وتنظم حياتها تبعاً لتعاليمه.

وكل قانون وضع له مستلزمات كما هو مبين في الشكل الآتي[33]:

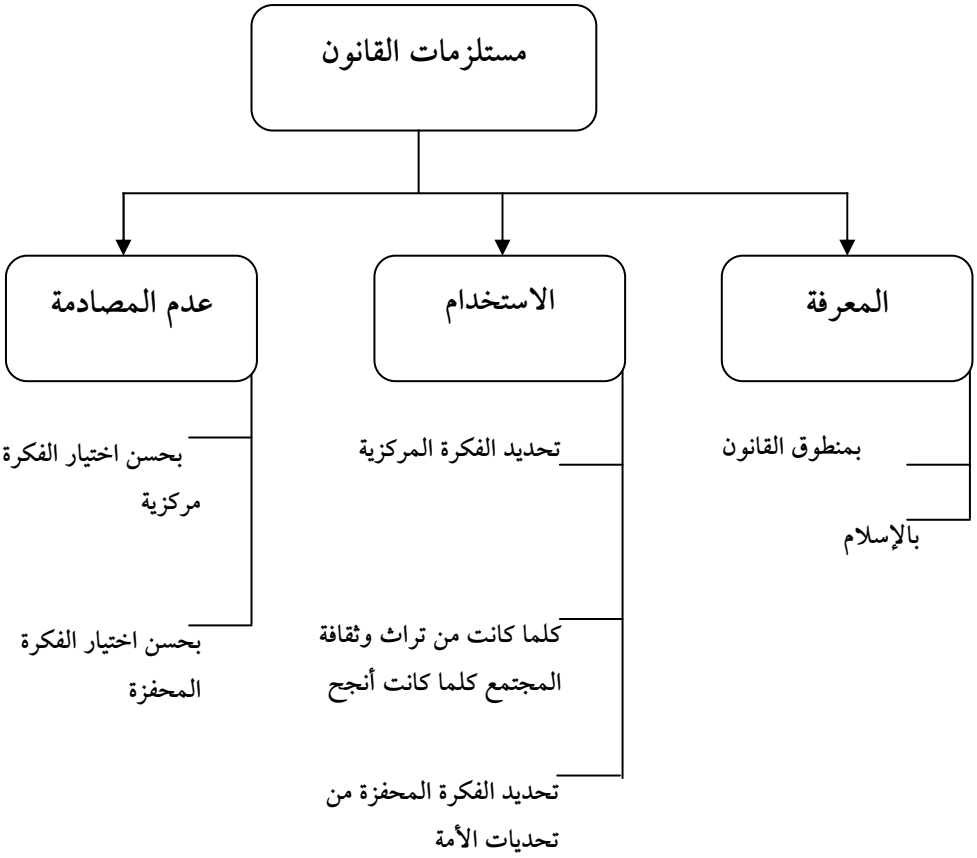

- المعرفة: ويقصد الرؤية المفاهيمية للقانون.
- الاستخدام: القابلية لتطبيقه وتنزيله .
- عدم المصادمة: واقعيته وموافقته للواقع والسنن.

ب- قانون المكنة النفسية – القوة الدافعة-

وهو عملية التغيير وانتقال وضع ما من حال إلى حال آخر، وتغيير إيجابي في عالم المشاعر: من

السلبية والإحساس باليأس إلى التفاؤل والإنجاز والشعور المتجدد بالحياة.

ت- قانون التغيير الذاتي:

تغيير إيجابي في عالم السلوك، ويُقصد به تحول إيجابي في ممارساتنا وواجباتنا تجاه الخالق وتجاه الذات وتجاه الخلق.

ث- قانون اختيار الشرائح:

ونقصد بها المجموعة من الناس التي تتقارب مستوياتهم الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والمهارية، بالإضافة إلى تقارب أهدافهم وإمكاناتهم. وسنستخدمه هنا بمعنى أوسع يقترب من فريق أو طائفة.

ج- قانون القوة والخصوبة:

ونقصد بها حيوية الأمة وقدرتها على إنتاج العدد الكبير من الرجال القادرين على النهوض بها بلا انقطاع.

ح- قانون المؤشرات الحساسة:

هي العلامات التي تدل على التقدم أو التأخر.

خ- قانون التدافع:

قضية التدافع -كما يشير القرآن الكريم- كانت ولا زالت وستكون هي جوهر الوجود البشري. فالوجود البشري قائم على هذا التضاد، وعلى هذا التدافع المستمر لخلق الله على أرضه. فالبشرية تدعو إلى السلام والأمن، بينما في الواقع يطغى الناس بعضهم على بعض، وتستمر عملية التدافع إلى أن يشاء الله عز وجل، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. فقانون التدافع يخبرنا بأنه لا مفر من عملية التدافع المستمرة في السلم والحرب، فهي حالة دائمة.

د- قانون الفرصة:

قانون الفرصة هو جزءٌ من عملية التدافع، ومعين على فهمها. ومن المعروف تاريخياً أن الفرص تتاح وباستمرار وبدون توقف للأمم، حتى تنهض وتتحرر.

إن إلمام القائد بهذا القانون وتدريبه على كيفية التعامل مع الفرص التي تتاح أمر في غاية الأهمية لنجاح مشروع النهضة.

ذ- قانون التداول:

فالمقصود أن الأحداث والوقائع لا تستمر على حال ولا منوال واحد؛ بل هي تارة لهذا الطرف وتارة أخرى للطرف الآخر. فدوام الحال من المحال. فالمنتصر اليوم كان مهزوماً بالأمس، وهكذا تمضي الحياة. يوم لك ويوم عليك.

ر- قانون الدعائم السبعة:

بدايةً تحتاج الدول إلى مجموعة من العناصر أو الدعائم اللازمة لاستنهاض الأمة.

ويفسر مثلا القانون العاشر المسمى بالدعائم العشرة للنهضة من خلال هذا الشكل التوضيحي الآتي[34]:

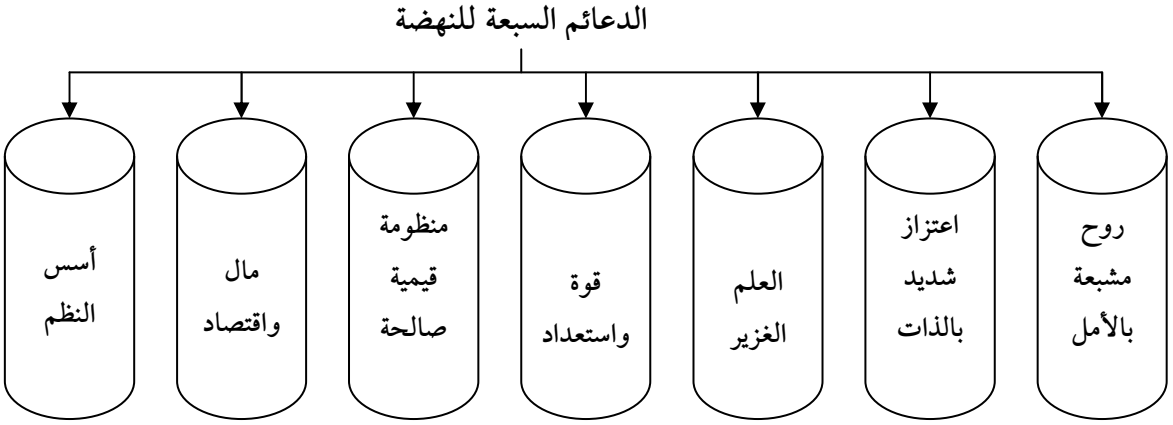

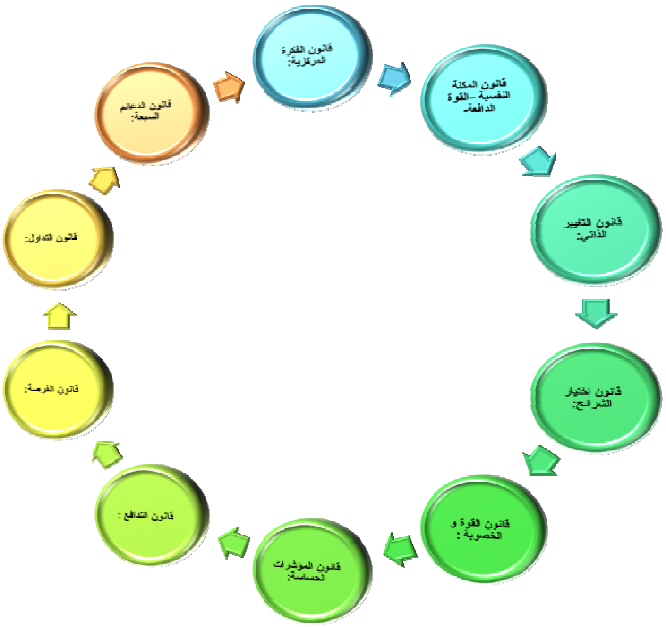

ويعلق جاسم سلطان عن هذه القوانين بقوله ومؤكدا أن: "... مشروع النهضة اليوم -وهو يرفع راية الانطلاقة العلمية والبعد عن الارتجال- حري بقادته أن يتعلموا هذه القوانين ويبحثوا عنها، ويستكشفوها، ويعلموها لطلاب النهضة، فسنن الله لا تتبدل، ولا تحابي أحداً. إن القوانين التي تحكم عمليات التحول الاجتماعي كثيرة، ذكرنا نزراً يسيراً منها، لنفتح باباً لعله كان مغلقاً، ونوقد شعلة لعلها تضيء الطريق للطامحين نحو التغيير، وعشاق القمم من قادة وطلاب النهضة"[35].

ويمكننا تفصيل ذلك من خلال بيان أهمية وضرورة ما يلي :

أ- تكاملية مشروع النهضة.

ب- الانطلاقة العملية من خلال شريحة البدء.

ت- الابتعاد عن الارتجال.

ث- استكشاف هذه القوانين التي تعتبر منطلقات توفيقية وليست بالضرورة توقيفية.

ج- الفقه السنني الحضاري.

ح- صناعة قادة وطلاب النهضة.

خ- ثقافة النهضة.

4. استراتيجيات لبناء مشروع مجتمع من خلال شروط مالك بن نبي و قوانين جاسم سلطان :

يتبين لنا مما سبق أن مالك بن نبي وجاسم سلطان يكتبان من معين واحد، وفق منهج واحد ورؤية واحدة وهدف واحد، ويتباينان في الأدوات المنهجية والمعطيات المستجدة. ويمكننا توضيح ذلك من خلال:

أ- العمق الفلسفي النظري الشامل لمالك بن نبي في مقابل الاستراتيجيات والإسقاطات الواقعية والاعتبارات الجيوسياسية لجاسم سلطان.

ب- شهادة مالك بن نبي لواقع الأمة في المرحلة الاستعمارية وما بعدها في مقابل شهادة جاسم سلطان لإرهاصات النهضة وملامحها، والمتمثلة في ماليزيا وتركيا وإندونيسيا وسنغافورة.

ت- الملاحظة من بعد لمالك بن نبي لحركات الإصلاح في مقابل الملاحظة بالمشاركة لجاسم سلطان لحركات الإصلاح.

ث- اهتم مالك بن نبي بنظرية التغيير الاجتماعي في الغالب في كتابه شروط النهضة، في مقابل القران والمزاوجة بين نظرية التغيير والتغير الاجتماعي عند جاسم سلطان.

ومن خلال المقاربات السابقة والعرض لشروط مالك بن نبي وقوانين جاسم سلطان نصل إلى الاستراتيجيات الآتية:

- تعتبر صناعة الإنسان من أولى الأوليات في مشاريع النهضة، باعتبار محوريته ومركزيته في عملية التغيير الاجتماعي.
- دور النخب في عملية التغيير الاجتماعي،- فئات: "البدء والتغيير والبناء".
- تفعيل دور المؤسسات التنشئة الاجتماعية في تفعيل أهمية الوقت من خلال مشاريع المجتمع المدني.
- الفقه السنني وأهميته التغيير الاجتماعي.
- الاهتمام بالجغرافيا السياسية - جيوبولتيك - في عملية التغيير الاجتماعي.
- تقوية شبكة العلاقات الاجتماعية وتفعيلها.
- الاتفاق على المشروع القائد - استثمار التراب - الذي تنطلق منه النهضة.

5. خاتمة

تعتبر النهضة وسؤالها ديدن نخبة من المفكرين والمنظرين عبر عقود من الزمن، ولا تزال شغل المؤسسات النهضوية في العالم الإسلامي. وقد عملت حركات الإصلاح والتجديد في تشخيص الأزمة ومن زوايا مختلفة ومن خلفيات معرفية متعددة، حققت في الغالب بعض الإنجازات على المستوى الوعي الفردي والمجتمعي.

لكن للأسف تعرضت بعضها لكثير من الإكراهات والتحديات خاصة فيما يتعلق بتطبيق رؤى الإصلاح في واقع الناس.

وسبب ذلك – في نظري – القراءات التجزيئية للمنهاج النبوي في الإصلاح من جهة، ومن جهة أخرى سوء فهم المعادلات السياسية والاجتماعية في البيئة المحلية والعالمية.

فكان مالك بن نبي نتيجة طبيعة لهذا الانسداد في الفهم والتعاطي مع النهضة وسؤالها، حيث يختصر مالك بن نبي هذه الرؤى بقوله: "فكل محاولة لإعادة بناء حضارة الإسلام يجب أن تقوم أولاً وقبل كل شيء على أساس (الفقه الخالص) على (الواقع السائد) الذي نشأ عن صِفّين، ولا شك أن هذا يقتضي رجوعاً إلى الإسلام الخالص، أعني تنقية النصوص القرآنية من غواشيها الكلامية والفقهية والفلسفية"[36].

وهذا المستوى العميق نختصره في المؤشرات التالية:

- ✓ الفقه الخالص من الشوائب.
- ✓ تنزيل الفقه الخالص على الواقع السائد -و هنا عبقرية المصلح وتميزه-

و"نقطة البداية" تمثل الحبكة في سيناريو النهضة ومصيرها ، لذلك يقرر الأستاذ مالك بن نبي بقوله: "إن علمية إعادة التنظيم والتوجيه (البناء والتفعيل) ينبغي أن تكون المهمة الأولى في خطة النهضة الإسلامية؛ لأن تحقيقها هو الذي يوجد الشرط الأول لتحويل الجهود في نطاق هذه النهضة إلى جهود فعّالة، وقد تم

هذا العمل في المجتمع الإسلامي الأول بفضل رعاية الفكرة القرآنية، لا على أنها مفاهيم تدرَّس، وتعلَّم على يد فقهاء في الشريعة، ولكن على أنها "حقيقة" عاملة مؤثرة، تجمع في نظامها مباشرة كل ما يقوم به الفرد من أعمال وإشارات"[37].

فالنهضة بالقرآن هي الرؤية الشاملة لهذا المشروع الحضاري عندما يتفاعل إنسان الفكرة القرآنية الفعالة مع زمانه و مسخرا ترابه.

وبذلك أسس مالك بن نبي نظرية التغيير الاجتماعي من الرؤية الحضارية الشاملة، وقد تجاوز تشخيصا وتنظيرا وتأسيسا كل النظريات والرؤى التي حاولت أن تعالج النهضة ومشكلاتها في العالم الإسلامي.

وجاء جاسم سلطان منطلقا من هذه النظرية ليضع الأساس لبناء استراتيجيات واقعية جاهزة من خلال ما سماه "مشروع النهضة" الذي عمل عليه لسنوات من خلال كتابات متكاملة، تمتاز بالعمق المنهجي والعرض الموضوعي البسيط.

وقد وضع القوانين العشرة للنهضة، التي جعلها أرضية لنخبة النهضة للانطلاق منها أو تعديلها.

والتعرف على قوانين النهضة أمر مهم جداً لكل من يهفو قلبه إلى التغيير، وإلا ضاع فريسة الارتجال. ولقد وجهنا المولى عز وجل إلى أن للكون قوانين ثابتة، فقال تعالى: ﴿ فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً ﴾[38]، وقال: ﴿ لا تبديل لخلق الله ﴾[39]. ففي الكون والنفس والسنن الاجتماعية الكثير من القوانين الثابتة. من أعرض عنها فقد ألغى عقله وأضر بنفسه[40].

مما سبق يتبين لنا أهمية التعرف على قوانين النهضة وشروطها ومحاولة فهمها واستيعابها والتكيف معها بطريقة كيميائية تفاعلية وفيزيائية حركية، وأنها من الفروض الكفائية على مستوى فئات التغيير، ومن الواجبات الشرعية على مستوى إشراك جميع أفراد الأمة في النجاعة الحضارية ومن الضرورات السننية التي لا تحابي أحدا .

وفي هذا يشير صاحب المنار في تفسير قوله تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (137) هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (138)﴾[41]. بقوله: "سننا عامة جرى عليها نظام الأمم من قبل . وأن ما وقع لهم مما يقص حكمته عليهم هو مطابق لتلك السنن التي لا تتحول ولا تتبدل. ولما كان التعليم بالقول وحده من غير تطبيق على الواقع مما ينسى أو يقل الاعتبار به نبههم على هذا التطبيق في أنفسهم وأرشدهم إلى تطبيقه على أحوال الأمم الأخرى فقال: ﴿ فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾، قال الأستاذ الإمام: أي: إن المصارعة بين الحق والباطل قد وقعت من الأمم الماضية، وكان أهل الحق يغلبون أهل الباطل وينصرون عليهم بالصبر والتقوى (أي اتقاء ما يجب اتقاؤه في الحرب بحسب الزمان والمكان ودرجة استعداد الأعداء)، وكان ذلك يجري بأسباب مطردة وعلى طرائق مستقيمة، يعلم منها أن صاحب الحق إذا حافظ عليه ينصر ويرث الأرض، وإن من

ينحرف عنه ويعيث في الأرض فسادا يخذل وتكون عاقبته الدمار، فسيروا في الأرض واستقروا ما حل بالأمم ليحصل لكم العلم الصحيح التفصيلي بذلك هو الذي يحصل به اليقين ويترتب عليه العمل، وقال بعض المفسرين: أي إن لم تصدقوا فسيروا. وهذا قول باطل."[42]

ذلك أنه من الواجب الحضاري اليوم الجمع بين المستويات الثلاث:

- الفقه الشرعي التعبدي؛
- الفقه التغييري الاجتماعي؛
- الفقه التغييري السنني.

وهذه المستويات تحقق لنا بالضرورة الخطوة الأولى في تطبيق قوانين النهضة وشروطها.

6. قائمة المراجع

- ابن خلدون، عبد الرحمن (1988). *مقدمة ابن خلدون*، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ط:2.
- بن نبي، ملك (1959). *حديث في البناء الجديد*، المكتبة العصرية، بيروت.
- بن نبي، ملك (1964). *آفاق جزائرية*، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر.
- بن نبي، ملك (1986). *تأملات*، مطبعة طار العروبة، القاهرة.
- بن نبي، ملك (1986). *شروط النهضة*، دار الفكر، دمشق.
- بن نبي، ملك (1986). *ميلاد مجتمع*، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر دمشق – سورية، ط:3.
- بن نبي، ملك (2002). *وجهة العالم الإسلامي*، دار الفكر معاصر، بيروت-لبنان، ودار الفكر دمشق – سورية.
- رضا، محمد رشيد. (1990). *تفسير المنار*، المكتبة المصرية للكتاب.
- سلطان، جاسم (2005)، *قوانين النهضة*، مؤسسة أم القرى، المنصورة بمصر، ط:4.
- سلطان، جاسم (2010). *من الصحوة إلى اليقظة*، مؤسسة أم القرى، المنصورة بمصر، ط:4.
- الشيخ، رأفت غنيمي (1988). *فلسفة التاريخ*. دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة.

7. الحواشي والإحالات:

[1] بن نبي، مالك، شروط النهضة، دار الفكر- دمشق سورية، 1986م، ص41.

[2] بن نبي، مالك، تأملات، مطبعة العروبة، القاهرة، 1961، ص124.

[3] ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ط:2، 1988م، ص13.

[4] دكتور رأفت غنيمي الشيخ، فلسفة التاريخ، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1988، ص7.

[5] مالك بن نبي، شروط النهضة، المرجع السابق، ص47.

[6] سلطان، جاسم، قوانين النهضة، مؤسسة أم القرى، المنصورة، الطبعة الرابعة، 2005، ص7.

[7] سورة النحل: 36

[8] انظر: رضا، محمد رشيد، تفسير المنار، المكتبة المصرية للكتاب، 1990، ص248.

[9] بن نبي، مالك، حديث في البناء الجديد، (بيروت: المكتبة العصرية، 1959)، ص14.

[10] شروط النهضة، المرجع السابق، ص83.

[11] المرجع نفسه، ص86.

[12] انظر: مالك بن نبي، آفاق جزائرية، مكتبة النهضة الجزائرية، 1964، ص46-47

[13] شروط النهضة، مرجع نفسه، ص48 – 49.

[14] المرجع نفسه، ص 66.

[15] المرجع نفسه، ص56.

[16] المرجع نفسه، ص51.

[17] المرجع نفسه، ص139.

[18] المرجع نفسه، ص141.

[19] المرجع نفسه، ص 44.

[20] المرجع نفسه، ص96.

[21] المرجع نفسه، ص96.

[22] مثلا: حل تنظيمه الذي كان يشرف عليه عندما ارتقى من منطق الدعوة والإصلاح إلى منطق الدولة والنهضة.

[23] راجع كتابه: أزمة التنظيمات الإسلامية – إخوان أنموذجا – ومحاضرة مراجعات.

[24] قوانين النهضة، المرجع نفسه، ص5-6.

[25] وضع جاسم سلطان مشروع متكامل من خلال ما سماه "مشروع النهضة". راجع كتاب مشروع النهضة من اليقظة إلى النهضة.

[26] قوانين النهضة، ص8.

[27] وقد قيل أن التبسيط دليل التمكن.

[28] قوانين النهضة، المرجع نفسه، ص38.

[29] راجع كتاب قوانين النهضة، المرجع نفسه، ص 73.

[30] جاسم سلطان، من الصحوة إلى اليقظة، مؤسسة أم القرى للترجمة والتوزيع، المنصورة، الطبعة الرابعة، 2010. ص41.

[31] راجع قوانين النهضة، ص80.

[32] راجع قوانين النهضة، المرجع نفسه، ص13 ،31 ،35، 63، 79، 103، 145، 179، 221، 227.

[33] المرجع نفسه، ص31.

[34] المرجع نفسه، ص236.

[35] المرجع نفسه، ص 200.

[36] مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، دار الفكر المعاصر، بيروت- لبنان / دار الفكر - دمشق – سورية، 2002م، ص62.

[37] مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق ، سورية، ط3، 1986م، ص106.

[38] سورة فاطر: 43.

[39] سورة الروم: 30.

[40] قوانين النهضة، المرجع نفسه، ص 6.

[41] سورة آل عمران: 137-138.

[42] محمد رشيد بن علي رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990، م 4، ص117.